الحدث الثقافي

"إنتفاضة الألوان" معرض يحتفي بالحياة في بيروت

إيتل عدنان... طفلة الشعر والرسم التي لم تكبر

في الـ95 من العمر، ما زالت الشاعرة والتشكيلية العربية الرائدة في اوج نشاطها الابداعي. معرضها "انتفاضة الالوان" خير دليل. لكن مسيرتها الشخصية لا تقل اهمية عن مشوارها الابداعي الذي غطى الرسم والتشكيل والشعر والمسرح والرواية

الرسامة والشاعرة والروائية ايتل عدنان.

لبنان هو تلك البقعة التي تحتضن جزءا من تاريخ العالم. هكذا، تنظر ايتل عدنان (1925) الى بلد الطفولة الذي "لا قيامة للعالم العربي من دونه". انه رهان العالم العربي وكوة الضوء فيه رغم كل الخراب والحروب والخيبات والاحلام التي سفكت على ارضه وترابه. هل تلك نظرة رومانسية حالمة الى البلد الذي وطئت قدما المسيح جنوبه كما قالت ايتل عدنان مرة، ام انها وجهة نظر مدعومة باحداث التاريخ؟

قلما يهم، اذ ستبقى بيروت ذاكرة متوهجة في لوحات وكتابات الطفلة التسعينية التي يمكن وصفها بانها شاهد حي على تاريخ لبنان بمختلف مراحله ومفترقاته منذ الاحتلال العثماني، فالانتداب، فاعلان الاستقلال والجمهورية الاولى وصولا الى اليوم. وايضا، قلما يهم عدد السنوات التي امضتها الشاعرة الرائدة والتشكيلية في بيروت. فهي تبقى مرتع الطفولة وملعبها وميدان التجارب الاولى، والاحتكاك الاول بالاشياء والعناصر التي طبعت ذاكرة الفنانة، وانسلت الى لوحتها وشعرها وادبها لتقيم فيها الى الابد.

كيف نبدأ بسيرة متشعبة لانسان عشق السفر رحلة لاكتشاف الذات والآخر، واعتنق هويات كثيرة تعايش معها بكل سلام، لكنه لم يلغ هويته الاولى؟

عبر معرض يحمل عنوان "انتفاضة الالوان"، تكرم صالة "صفير زملر" ابنة الهويات المتعددة والانتماءات الكثيرة (هل نقول متناقضة؟) والتجارب الابداعية التي غطت الشعر والتشكيل والرواية والمسرح، لكنها ظلت طفلة تحب الالوان والرسم، كأننا به سبب وجودها الاول. يغطي المعرض البيروتي ممارسة فنية امتدت على اكثر من نصف قرن، كما مختلف الوسائط التي لجأت اليها عدنان في العملية الابداعية: لوحات مرسومة على قماش، رسومات، ودفاتر "لوبوريلو" يابانية اشبه بالاكورديون نَقشت عليها ابياتا من قصائد عربية لابرز الشعراء العرب كانسي الحاج وادونيس، وايضا سجادات انتجتها حديثا بالاستناد الى مسودات انجزتها في الستينات من القرن الماضي. شموش مشرقة، مساحات خضراء مضيئة، جبال وقمم وبحار وحروف وقصائد عربية لا تعرف عدنان فك شيفرتها وسجادات طبعت ذاكرتها طفلة عندما كانت تجوب سوق الحميدية في الشام مع والدها... كلها ارث عربي مشرقي حملته ذاكرة طفولتها رغم اقامات الفنانة في عواصم غربية كثيرة، لكن هذا الارث ما انفك يحضر في لوحتها واعمالها الفنية.

لعل سيرة ايتل عدنان الشخصية تضاهي مسيرتها الفنية اثارة. عدنان المولودة في بيروت لأم مسيحية يونانية من سميرنا في ازمير (غرب الاناضول) ووالد سوري مسلم كان ضابطا في الجيش العثماني، تشربت التنوع بصفته غنى انسانيا وفكريا في منزل العائلة. والدها كان رجلا واسع الافق، متسامحا ومنفتحا، قابل ممارسات زوجته التي كانت مؤمنة ومتدينة بكثير من التسامح وقبول الآخر. لكن علاقة عدنان بلغتها الام ستظل موضع حيرة وتمزق واسئلة. فهي من الجيل الذي تعلم في مدارس الراهبات في بيروت، حيث كل من يتحدث العربية كان يقابل بالعقاب والقصاص. كان يُنظر الى لغة الضاد بوصفها لسان المهمشين والفقراء والاميين واسفل القوم. في اختصار، كانت هذه اللغة ممنوعة، وحصص تعليمها غائبة كليا عن المنهج التربوي. في المنزل، كانت امها تتحدث معها باليونانية، فيما تتكلم الزوجة مع زوجها بالتركية. هذه العلاقة الاشكالية مع اللغة العربية، ستدفع ايتل عدنان لاحقا الى حسم انتمائها الذي تشتت بين لغات عدة، واختيار الرسم هوية اساسية، بدلا من الكلمة، مع انها كتبت دواوينها الشعرية بالفرنسية والانكليزية. لكن الحرية التي اتاحها لها الرسم، اشعرها بان هذه الهوية اوسع من اي هويات اخرى، بل يمكنها ان تحتوي الهويات الاخرى المتلاطمة داخل الفنانة.

يمكن القول ان ايتل عدنان ولدت وترعرعت وكبرت في بيروت الكوسموبوليتية بحق، حيث تعدد اللغات كان امرا عاديا وبديهيا. حينذاك، كانت العاصمة تعج بجنسيات مختلفة من طليان ويونان وانكليز وروس وفرنسيين وارمن يرطنون بلغتهم في شوارع المدينة، وكانت هي ابنة هذا التنوع وهذا الانفتاح على العوالم الاخرى. والاهم من ذلك انها استحالت شاهدا اساسيا على تاريخ لبنان الحديث. فقد عاشت مختلف المراحل التاريخية والاجتماعية والسياسية التي مر بها. مثلا، كانت من الجيل الاول من الفتيات اللواتي نزلن للسباحة في منتجع "السان جورج" في خطوة هي الاولى في رحلة تحرر المرأة. كما كانت من الجيل الاول من النساء الذي خرج للعمل خارج اسوار المنزل، حين عملت مراهقة في السادسة عشرة من عمرها في مكتب صحافي خلال الانتداب.

في هذا المناخ المفتوح والمشرع على الاحتمالات وعلى موت عوالم (سقوط الامبراطورية العثمانية الذي جعل والدها رجلا مكسورا، واحتراق ازمير مدينة والدتها في عام 1922) وقيام اخرى، تفتح وعي الابنة التي فطمت على ان الهويات ◄

نقطة على السطر

في زمن الحَجر... الثقافة الرقمية للجميع

في زمن الوباء، اكتشف الناس العزلة من جديد. فجأة بات عليهم ان يتخلوا عن صخب الحياة الحديثة، ويحصنوا انفسهم في منازلهم، كأنها الحرب الكونية. وهي حرب فعلا، انما من نوع آخر. هذا التنسك القسري، المفروض على المواطنين في اهم دول العالم، وليس فقط في لبنان، لفترة قد تقصر... او تطول، اعاد البشر الى الاساسيات، ودفعهم الى التخلي عن كل الموبقات، التي تجعلهم يركضون بلا جدوى، كما يذكّر الكومندان كوستو عاشق المحيطات، في وثائقي شهير، تاركين خلفهم بساطة الاشياء، وهدف كل حياة: اي السعادة، والتوازن الصحي، جسديا وعقليا وروحيا، وتوزان العلاقة بين البشر، وتوازن علاقة الانسان بعناصر الطبيعة... الذي ادى فقدانه الى الكورونا وغيره.

اليوم من معتقلاتنا الطوعية المستحدثة، وجدنا انفسنا فجأة نسأل عن معنى وجودنا، وكيفية ملء كل هذا الوقت. صار لدينا الوقت كي نسمع: نسمع انفسنا، نسمع الآخر القريب. صار لدينا الوقت كي نفكر، كي نطرح الاسئلة الصحيحة التي اجلناها طويلا، او تهربنا منها بشتى الذرائع، او ببساطة لم نسمعها في اعماقنا من الاساس.

أليست هذه الوضعية المثالية لاعادة اكتشاف حاجتنا الى الثقافة؟ الثقافة هذه المرآة الميتافيزيقية التي تعيدنا الى ذواتنا، الى علاقتنا بأنفسنا، بجماعتنا واهلنا، بشعبنا ووطننا، بالانسانية والكوكب... وايضا علاقتنا بالحياة والموت، بالمشاعر البشرية، والعدالة والحرية، بالماضي والمستقبل والماوراء...

صحيح ان الاقبال على الثقافة في بعض وجوهه اجتماعي. نذهب الى السينما والمسرح وصالات العرض لنتفاعل مع الابداع، بشكل مشترك مع الناس، قد يصل الى الانصهار والاندماج مع الجمهور احيانا، وهذا احد مفاتيح الطقوس المشهدية المختلفة. لكننا في زمن الحجر المنزلي، الجسر الوحيد الذي يربطنا بالعالم هو الجسر الرقمي. ما تختصره العامة بتسمية الانترنت. يمكننا اليوم عبر هذا الجسر ان نعيد اكتشاف الفن والفكر والادب. من انظمة التعلم عن بعد التي تبنتها المؤسسات التربوية، وتلفزيون لبنان، الى زيارة متاحف العالم من دون مغادرة غرفة الجلوس.

لقد فتحت اهم متاحف العالم كنوزها للناس من دون مقابل، عبر صفحاتها ومواقعها. في باريس مثلا تضع الاوبرا الوطنية يوميا عملا جديدا من روائعها المصورة في متناول الجمهور مجانا. عشرات المؤسسات الكبرى فعلت الامر نفسه، حتى ان بعض المؤسسات الاعلامية، تقترح على قرائها ومشاهديها كنوزا من الافلام الراقية والمهمة... المعهد الوطني للارشيف المرئي والمسموع في فرنسا ايضا فتح للجمهور مجانا جزءا من ارشيفه، بحيث يمكن مشاهدة برامج التوك شو الثقافي والسياسي والاجتماعي من الثمانينيات.

في لبنان دعت المديرية العامة للآثار، في اشراف وزارة الثقافة، المواطنين الى "زيارة افتراضية للمتحف الوطني وعدد من المواقع الاثرية في لبنان، في ظل الاقفال القسري للمرافق والمؤسسات العامة والخاصة". متحف سرسق العريق بدوره فتح نافذة مجانية على عدد من معارضه القديمة والحديثة التي يمكن الاطلاع على تفاصيلها ومحتوياتها عبر الانترت، على الشاشات المختلفة التي تسيج وجودنا. كثير من الغاليريهات الخاصة في بيروت حذت حذو سرسق، نذكر على سبيل المثال لا الحصر "زملر صفير" حيث يمكن مشاهدة معرض ايتل عدنان الذي نتناوله في هذه الصفحات.

عندما ينتهي هذا الامتحان الصعب ونستعيد حياتنا الطبيعية، سنخرج بدروس كثيرة، في طليعتها اهمية الثقافة في حياتنا، والدور الحيوي الذي يلعبه الانترنت في ايصالها الى اوسع دائرة من المواطنات والمواطنين.

سمير مراد

من دون عنوان (كتاب لوبوريلو ياباني والوان مائية وقلم رصاص على كرتون - 2018).

المتعددة ليس ضروريا ان تكون قاتلة. في عمر الـ24، بعدما درست الادب الفرنسي في بيروت، ستشد رحالها الى باريس حيث ستنال شهادة في الفلسفة من جامعة السوربون. بعد ذلك، ستنتقل الى الولايات المتحدة، حيث ستدرس فلسفة الفن في كاليفورنيا، وتعلم الفلسفة في "معهد سان رفاييل" من عام 1958 حتى عام 1972.

رحلة الى القمر (نقش - 2018).

اندلاع حرب التحرير الجزائرية جعلها ترفض الكتابة بالفرنسية، لغة "المستعمِر والمحتل"، فقررت التحول الى الرسم، وانجزت لوحاتها الزيتية التجريدية الاولى. وردا على حرب الفيتنام، بدأت تكتب القصائد بالانكليزية. عادت بعدها الى بيروت لتنطلق في الصحافة الثقافية على منبر صحيفة "الصفا" الفرنسية، وتواكب مختلف الحركات الشعرية والتشكيلية والمسرحية التي كانت بيروت حضنا سمحا ورحبا لها. لكن ايتل لم تكن تعرف انها ستكون على موعد مع فقدان عالم آخر عزيز على قلبها. الفتاة التي تعلمت التأقلم مع الخسارة منذ فقدان والديها عالميهما، سترى مدينة الاحتمالات ميدانا للحديد والنار وخطوط التماس المشتعلة والرصاص الطائش. سينفطر قلبها كما قالت مرة، لكنها لن تفقد الامل بهذا البلد ذي الامكانات الواسعة الذي يتكئ الى ارث عريق وماض سحيق جعله يوما ما منارة للشرق كله. جعلتها الحرب تعود ادراجها الى باريس هذه المرة، حيث تفرغت لروايتها "الست ماري روز" (1978).

الرواية التي كتبتها بالفرنسية وترجمت الى العربية، استحالت من كلاسيكيات الادب اللبناني عن الحرب. في هذا العمل، تحدثت عدنان عن ماري روز بولس التي اعدمت في المنطقة الشرقية بسبب تعاطفها مع القضية الفلسطينية. الرواية تتخطى اطارها الزماني والمكاني، لتقارب قضايا وتيمات متعددة كرفض الآخر وتصفية الاختلاف والكراهية ودور المرأة في المجتمع وسقوط الاخلاق والعنف الطائفي في الحرب. ترجم العمل الى عشر لغات، واستحق جوائز عدة. الغريب في ممارسة ايتل عدنان الابداعية، ان الكتابة عندها التزمت بالنضال واقترنت بالوعي السياسي الحاد لقضايا المنطقة، فعجنت بالموت والمنفى والظلم الاجتماعي والسياسي والحرب وقضايا العالم العربي على رأسها فلسطين والنكسة التي شكلت صدمة قوية لايتل عدنان.

لعل من ابرز اعمالها الشعرية السياسية مطولتها "سفر القيامة العربي" التي صدرت بالانكليزية عام 1989، وتعتبر من ابرز الاعمال التي قاربت الحرب الاهلية اللبنانية. اما "27 اكتوبر"، فهي قصيدة

فرنسية طويلة كتبتها على اثر الغزو الاميركي للعراق 2003.

في مقابل حضور هذه التيمات السياسية والنضالية في شعرها وادبها، نرى وجها آخر مناقضا في لوحاتها. اذ تظهر هذه اللوحات تشبثها بالطفلة الابدية التي ما زالت عليها. طفلة تحب اللهو والتجريب وخصوصا الالوان. لوحتها تحتلها الجبال والقمم (تأثرت بها في طفولتها عندما كانت تطلع مع العائلة الى منطقة برمانا وترى الجبال الى يمينها والبحر الى يسارها) والوديان والانهر والبحار والنوافذ المشرعة على النور والامل والذات والاخر والمساحات الشاسعة المبهجة للعين والنظر. لوحاتها التجريدية الاولى رسمتها بالسكين، وبضربات قوية ومباغتة، واحتلها دوما مربع احمر، في اهتمام قوي بجمال اللون الفوري.

> **كانت من الجيل الاول من الفتيات اللواتي نزلن للسباحة**

من دون عنوان (زيت على كانفاس 1995 - 2000).

في الستينيات، ادخلت الخط العربي في اعمالها ولوحاتها. امضت ساعات تنقل كلمات القصائد العربية التي لا تفهمها لكنها مفتونة بها، الى اللوحة. في الواقع، تأثر فنها بالفنانين الحروفيين الاوائل امثال العراقي جواد سليم والكاتب والرسام الفلسطيني جبرا ابراهيم جبرا والعراقي شاكر حسن آل سعيد الذي رفضوا الفن الغربي، وذهبوا الى استنباط لغة فنية حديثة، لكن منبثقة من التربة المحلية العربية من وسائط وتقنيات ومرجعيات حضارية وثقافية.

بين كتابة الشعر والروايات والمسرحيات من جهة والرسم من جهة اخرى، وجدت ايتل عدنان ان الرسم (او الصورة) ذو تأثير اقوى واوضح من الكلمة. فالصورة تفرض نفسها بصفتها لغة قائمة في ذاتها، واللوحات تحمل فلسفة حية، تجعلنا نفكر، وتكتنف فكرة مخفية في طياتها تنتظر المتلقي ليكشفها. نالت ايتل عدنان جوائز وتكريمات كثيرة، ودخلت لوحاتها مجموعات اهم المؤسسات الفنية حول العالم.

في الـ 95 من عمرها، تقسم هذه الطفلة التي لم تكبر وقتها بين شقتها في باريس وشقتها في كاليفورنيا. ما زالت تحلم، لكن احلامها ليس فردية (هل كانت كذلك يوما؟). هي تحلم بلبنان مستعيدا عافيته الكاملة، خصوصا وان شبابه يتمتع بامكانات كثيرة. تحلم بان يعود هذا البلد نورا يشع على العواصم العربية، تحلم بان يتخلى الناس عن انانيتهم، ويلتفتوا الى الاخر، فبالحب وحده يشفى البشر، والغاء الاخر وتصفيته وقتله ليس صفة انسانية ابدا. هكذا تعتبر ايتل عدنان التي تتمنى ان يذكرها الناس بانها كائن احب الحياة حتى التطرف، وعاشها حتى الامتلاء وعانق الآخر حتى التمازج. لوحاتها النابضة بالحياة اجمل دليل على ذلك.

س.م.